(٤٦)

الإنسان في القرآن الكريم

العدد (١٨٢) صفر (١٤٠٠هـ) ديسمبر (١٩٧٩م)

كانت الملائكة متشائمة من مستقبل الإنسان على ظهر الأرض، لعلها أحست أن أصله الترابي سيجعله هشا أمام الاختبارات الصلبة، وأنه سيفقد تماسكه أمام الأهواء والمغريات، لعلها رأت أنه يشبه أجناسًا أخرى لم تصدع بأمر الله، ولم تحسن تنفيذ وصاياه، أو لعل شعاعًا من عالم الغيب طلع عليها فرأت معه صورًا من الحروب الدامية والمسالك المعوجة التي سوف يخوضها البشر ويظلمون بها أنفسهم.

على أية حال لقد تساءلت الملائكة مستغربة وقالت لله جل شأنه ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (**البقرة: ٣٠**) وكان الجواب الأعلى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وخلق الله آدم ووهب له عقلًا محيطًا بالأشياء كلها، ووضع في هذا العقل خاصة باهرة ليتمكن بها من معرفة الأسرار والظواهر، ويهيمن بها على شتيت من القوى والعناصر، إن هذا الإنسان المحدود في أعضائه ومشاعره، يملك طاقات ضخمة تجعله سيدًا لما حوله، بل تجعله ملكًا واسع السلطان ممدود النفوذ، ولعل الملائكة اليوم ترقبه دهشة وهو يخترق الفضاء ويغزو الكواكب.. لكن عظمة الإنسان لا تكمن في هذه القدرات الطيعة، إنها تكمن في أمر آخر أهم منها وأجل، هو معرفته لمن خلقه فسواه، لمن أعلى قدره ورفع مستواه، لله الذي خلق هذا الكون ومكنه فيه وسخره له..

إن هذا الفريق من الناس الذي عرف ربه وأسلم له وجهه، وافتتح مغاليق الحياة باسمه، هو الذي يبرز الحكمة من وجود الإنسان في العالم، وأحسب أن هذا الفريق الصالح المصلح، هو الذي استشفت الملائكة خبره ثم قالت

لله ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (**البقرة: ٣٢**)، وقصة الحياة الإنسانية كما ساقها القرآن الكريم تستوقف النظر من نواح عدة نحب أن نبينها، أولها هذا التنعيم الذي أحاط بها منذ بدايتها، فبين يدي عرض القصة في سورة البقرة نقرأ قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (**البقرة: ٢٩**)، وقبل ذلك بقليل نقرأ ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ ﴾ (**البقرة: ٢٢**).

وبين يدي عرضها في سور الأعراف نقرأ قوله ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾(**الأعراف: ١٠، ١١**).

وبين يدي عرضها في سورة الحجر سرد للنعم التي تحف الحياة البشرية نقرأ منه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾(**الحجر: ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠**).

والواقع أن الرغيف الذي يطعمه إنسان، تشترك في إنباته وإنضاجه فجاج الأرض وآفاق السماء فتربة الأرض، والسحب الهامية، والأشعة العمودية أو المائلة التي تتعرض لها الحقول خلال دوران الأرض حول الشمس، وأثر الضوء في تكوين الخضرة، وأشياء أخرى كثيرة تتعاون جميعًا على تكوين الغذاء والكساء والدواء، الذي يحتاج إليه البشر، إن شبكة من المواد الدقيقة جدًا، والجسيمة جدًا، انتظمت في خدمة الإنسان وتأمين معايشه وتخطيط حاضره ومستقبله، كل يؤدي دوره بوفاء وقدرة.. الكواكب السابحة في الفضاء، والجرائم التي لا تراها العين.

وذاك سر الأقسام الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم مشيرة إلى فخامة هذا العالم ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾(**الانشقاق: ١٦، ١٧، ١٨، ١٩**)، ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾(**المدثر: ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥**) وتدبر القسم بالرياح المثيرة والسحب الحافلة وما يتبع ذلك من زرع وحصاد وتجارة واحتراف وخبرات تعم البشر﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوًا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرًا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرًا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ (**الذاريات: ١،٢،٣،٤،٥**) إن رب العالمين أبدع ما صنع، وحدثنا عن هذا الإبداع لنعجب به ونتذوق جماله. وإني لأستغرب أحوال ناس ينتسبون إلى الإسلام ويديرون ظهرهم للكون، فلا يدرسون له قانونًا، ولا يكشفون له سرًا.

أي إيمان هذا؟ وأي جهل بقصة الحياة ووظيفة آدم وبنيه في ربوعها؟

إن الإنسان في القرآن الكريم كائن مكرم مفضل محترم مخدوم، ومن حق الله تبارك اسمه أن يعاتب البشر على سوء تقديرهم لآلائه ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ (**لقمان: ٢٠**).

هذه ناحية تتصل بالتكريم المادي للإنسان، وثم ناحية ثانية تتصل بكيانه المعنوي فالإنسان نفخة من روح الله الأعلى.. هكذا بدأ خلق آدم، وهكذا تتخلق الأجنة في بطون الأمهات، إن الحياة في شتى الأجسام المتحركة شيء، وخصائص الحياة الرفيعة في أبناء آدم شيء آخر، وقد أشاع الله نعمة الخلق بين خلائق كثيرة برزت من العدم إلي الوجود، بيد أن آدم وحده هو الذي وصفه بقوله ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾(**ص: ٧٢**) واطرد هذا التكريم في ذريته إلى قيام الساعة ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ

ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ (السجدة: ٧، ٨، ٩).

والإنسان بهذه النفخة كائن جديد يعلو فوق ما يشبهه من ضروب الحيوان ولذلك قال جل شأنه ﴿... فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤) وبعد أن تم خلق آدم على هذه الصورة أمر الله الملائكة أن تسجد له سجود تعظيم وتوقير لا سجود عبادة! والملائكة هي التي أبدت دهشتها لإيجاد هذا الإنسان واستنكرت ما سوف يقع منه من فساد وفوضى.

إنها طولبت بالسجود له بعدما تم تكوينه! وعوقب من رفض السجود بالطرد من رحمة الله وسواء كان إبليس من الملائكة، أم صادف وجوده بينهم وهو من الجن، فإن النتيجة لا تختلف، إذ إن الاستهانة بالإنسان هي عند الله عصيان وخيم العاقبة! وهذا التكريم البين ينضم إليه أمر آخر عظيم الدلالة على مكانة الإنسان وحفاوة الله به، هذا الأمر هو الفرح الإلهي بعودة الإنسان التائب واستقبال الله له بإعزاز بالغ، وتجاوزه عما فرط منه من خطأ، وقوله في عفو شامل ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢).

كلتا الناحيتين من تكريم وتنعيم استتبعت ناحية ثالثة، كان لها الأثر الأكبر في مستقبل الإنسان ومستقبل الكوكب الذي أعد لسكناه، بل في مستقبل المجموعة الشمسية كلها التي سينتثر عقدها وينطفئ نورها مع انتهاء الرسالة الإنسانية على ظهر الأرض.. هذه الناحية هي التكليف، فإن الله الذي زود الإنسان بهذا السمو في مواهبه لم يتركه سدى، بل أمره ونهاه وطلب منه أن يفعل، وأن يترك! وربما كلفه أن يفعل ما يثقله، وأن يترك ما يشتهيه!! وهنا نقف وقفة يسيرة أمام سر التكليف ومعناه لنتناول جملة أمور.

إن أبانا آدم، وهو الإنسان الأول، كلف ألا يأكل من شجرة معينة وكان جديرًا به أن يعرف حق الآمر جل شأنه وأن يدع الأكل من هذه الشجرة أبدا ولكنه بعد مرحلة من الذهول والضعف، عرضت له ساعة انهيار في إرادته وامتداد في رغبته، فأكل من الشجرة المحرمة، وشاركته زوجته في عصيانه فطردا جميعًا من الجنة، وكانا قد أحسا بالخطأ الذي تورطا فيه، فدعوا الله نادمين ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (**الأعراف: ٢٣، ٢٤، ٢٥**)، ونزل أبوانا إلى الأرض، وشرع كثير من الأبناء يمثلون القصة نفسها، ويرتكبون الخطأ ذاته، ولكنه ليس أكلا من شجرة، بل اتباعا للشهوات التي تقود إلى العصيان والحرمان!

العنوان متغير والحقيقة واحدة.. إن هذا السلوك من الإنسان الأول يجعلنا نتساءل عن علته، والعلة واضحة، فإن الإنسان بدأ حياته بطبيعة مزدوجة، قبس من نور الله داخل غلاف من طين الأرض!

إن الله تبارك وتعالى بعدما صور الإنسان من التراب وسواه، نفخ فيه من روحه، فإذا كائن عجيب يجمع النقائض في تركيبه، يقدر على التسامي وعلى الإسفاف، يقدر على الاستقامة وعلى الانحراف! وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا الخليط في التكوين البشري فقال جل شأنه ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾(**الإنسان: ٢**) كما نبه إلى أن إلمامه بالخطايا ليس مستغربًا، إنه ينزع إلى عرق فيه! ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾(**النجم: ٣٢**).

وكلتا النزعتين الأرضية والسماوية تجد في الحياة أو في البيئة ما

يضعفها أو يقويها وقبل ذلك كله، تجد في الإنسان نفسه ما يرجح كفة على أخرى، وما يسلم زمامه للخير أو للشر، كما يريد هو لنفسه دون تدخل من أحد في اتجاهه هنا أو هنا.

إن إيثار الوقوف عند الإشارة الحمراء أو المروق منها والتعرض لأخطار الانطلاق الأحمق تصرف إنساني محض.

وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ (**الأعراف: ١٧٥، ١٧٦**) أي لو تسامى وترفع ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فتركه الله حيث شاء لنفسه.

ولا بد من توكيد هذه الحقيقة، حقيقة الإرادة الحرة في الصعود والهبوط، في التقوى والفجور، في إغضاب الله أو إرضائه، فإن الرحمن الرحيم يستحيل أن يظلم إنسانا سعى في مرضاته كما أنه لا يرضى عن إنسان سعى في إغضابه.

وبعض الناس يماري في هذه الحقيقة عن مكابرة، أو تمحل أعذار، وهيهات، فقصة الوجود الإنساني تقوم على اختيار حقيقي لاكتشاف المحسن والمسيء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (**الملك: ٢**) والمحسن إنسان أتقن العمل واحترم الصواب، والمسيء إنسان فرط ولزم العوج، والعراك داخل النفس الإنسانية لاختيار أحد النهجين عراك حقيقي لا صوري، وتلمح صدق هذا العراك وقبول نتائجه في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (**النازعات: ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١**). إن السالم في هذا العراك إنسان يشعر بقيام الله عليه وعلى سائر الكائنات، ومع نماء هذا الشعور يخفت صوت

الهوى، ويغلبه صوت الضمير اليقظان أو القلب الحي.. فأين التمثيل أو المحاباة أو الخداع في هذه الحالات؟

الله جل شأنه ينادي الإنسان ويذكره ويهديه، وعلى الإنسان أن يلبي ويتذكر ويهتدي، فإذا أبى إلا الشرود فهو وحده الملوم، ومن ثم تقررت هذه الأحكام العادلة التي تدركها من قوله تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ (**الأنعام**: ١٠٤) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (**الشمس**: ٧، ٨، ٩، ١٠)، والتزكية والتدسية جهد بشري محض، أو كذلك يكون أول الطريق، ثم يلحقه من مشيئة الله ما يصل به إلى النهاية ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾(**النساء**: ١١٥).

ونتساءل مرة ثانية: ما قيمة الصوت المضلل الذي يستمع إليه الإنسان فيزيغ ويشقى؟ الحق أن صداه الضخم أضعاف أضعاف حقيقته التافهة، إنه كنقيق الضفدعة يملأ أكناف الليل ومصدره لا قيمة له!

ما الشجرة التي أكل منها آدم؟ هل أحس طويلا لذة ثمرها ومتعة ازدرادها؟ لقد كانت وهما هذه النشوة المأمولة، ولو فرضناها لذة ساعة فما قيمتها إذا ووزنت بما أعقبته من حسرات سنين عددا؟ بل دهرا طويلا!

إن الإنسان في هذه الدنيا تهيجه رغبة حمقاء إلى شيء محرم، ما إن يواقعه حتى يحس الفراغ والضياع، وحقيق بالإنسان أن يتماسك أمام عوامل الاستفزاز ومزالق القدم.

ونتساءل مرة أخرى: ما مصدر هذا الصوت النابي الجهول الذي يزل الإنسان؟ والجواب أن له مصدرين اثنين أولهما نفس الإنسان، أو الإهاب

الترابي الذي غلفت به، والمصدر الثاني من كائن آخر خاصم الإنسان من النشأة الأولى وهو الشيطان الذي آلى على نفسه استدامة هذا الخصام إلى يوم النشور.

في المصدر الداخلي للمعصية يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾(طه: ١١٥).

فالنسيان وضعف العزيمة رذائل وقع فيها الإنسان الأول، ومع تولدها في نفسه تتهيأ الإمكانات للشيطان كي يوسوس ويخادع، ويقول لآدم وامرأته ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ (الأعراف: ٢٠، ٢١، ٢٢). وما تمت هذه التدلية ولا نجح الشيطان في خدعته إلا لأن آدم كان قد ضعفت ذاكرته وضعفت إرادته.

الضعف النفسي أولا! ثم وساوس الشيطان ثانيًا! ولا عبرة بما يتعلل به المخطئون من أن الشيطان هو السبب الأول والأخير في انحدارهم!

إن للشيطان محطة إرسال يذيع منها فنون الإغراء والإغواء، والإنسان هو الذي يهيئ أقطار نفسه لاستقبال هذه الإذاعات والتجاوب معها.

وأنت الذي تتخير ما تسمع من محطات «الراديو» المختلفة، ولو شئت أغلقت للفور ما تعاف سماعه، وابتعدت عنه، حتى لا يصل صداه إلى سمعك، أو قاومته بمشاعر النفور والمقت حتى لا يستولي عليك وقد منح الشيطان من أول يوم القدرة على إغراء الإنسان وخداعه.

ودفعته خصومته إلى ابتكار وسائل كثيرة ونصب أحابيل مختلفة لإيقاع الأغرار والغافلين وقيل له:

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾

(**الإسراء:** ٦٤) ولكن الشيطان لا يملك أكثر من الكلام، يكذب فيه ويغر، وقد نبه الله آدم وبنيه إلى هذا الكاذب.. وحذرهم من الشراك المنصوبة والأقاويل المزورة.

إن الشيطان يعد كاذبا، ويقسم حانثا، وينصح غاشا، ويلين ليلدغ، وينحني ليثب ويصرع، وهو في هذا كله لا يملك إلا شيئًا واحدًا، الكلام، الكلام وحده! فلا يجوز أن نصدقه ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾(**طه:** ١١٧) ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ (**الكهف:** ٥٠) ومع ذلك فقد قدر الشيطان بالكلام المضلل أن يزيغ الكثيرين.. وسيقول يوم القيامة لمن استجابوا له ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ ﴾(**إبراهيم:** ٢٢).

إن سلاح الشيطان مفلول والنجاة منه ميسورة ميسورة! وعندما يقع البعض في قبضته فلا حماية له، لأن القانون لا يحمي المغفلين! ومن ثم فالجهد الحقيقي في النصح والتربية يتجه إلى الإنسان أولا وآخرا ليوقظ فيه أسباب الحذر، وليسد الثغرات التي يمكن أن يتسلل منها الشيطان بوساوسه الماكرة، لقد أشرنا إلى الأمشاج التي يتكون منها الإنسان، والحق أن في الإنسان- مع أصله السماوي - طباعًا لا يجوز تركها حرة تتصرف كما تشاء، لا بد من مراقبتها بدقة وإخضاع حركتها وسكناتها لحكم الله، وإلا جرته من القمة إلى الحضيض ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾(**التين:** ٤، ٥).

وليس معنى هذا الرد أنه تحول إلى مسخ ذميم بعدما كان في ذروة الحسن! كلا.. المعنى أن إمكانات الهبوط جاورت معاني الرفعة في نفسه، وأنه يستطيع التحليق والإسفاف معًا وذاك سر الاستثناء بعد ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾(**التين**: ٦)، أي سوف يبقى قوامهم حسنًا ماديًا ومعنويًا!

وجاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تقرر الطبائع الرديئة التي ينبغي الخلاص منها، فالإنسان أناني يحب نفسه وحسب، وقد تكون محبة النفس أصلًا في استبقاء الحياة، ولكن هذه المحبة تتحول إلى مرض خطير، يورث الشره، والطمع، والبغي، واجتياح الحقوق بنزق، وقد ذكر القرآن أن هذه الأثرة لا يطفئها الغنى مهما اتسع ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ (**الإسراء**: ١٠٠)، والإنسان نسّاء أو غافل، وقد يكون هذا أو ذاك أصلا في استبقاء الحياة، فلو استصحب المرء حزنه إلى الأبد على ما فقد ما صلحت الدنيا.

ولكن هذا الذهول قد يكون جرثومة الكنود ونكران الجميل ونسيان الرب وما أولى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾(**الإسراء**: ٦٧)، ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾ (**العاديات**: ٦، ٧) والإنسان الذي يحلو له أحيانا أن يفخر، ويتطاول، وينظر إلى السماء بقلة اكتراث تذله علة في أي مكان من جسمه أو تزله غلطة في أي وقت من تفكيره مهما كان عبقريا ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ (**النساء**: ٢٨)، والإنسان محتال كبير في الدفاع عن نفسه والتماس الأعذار لأخطائه وعد ما يقع منه وجهة نظر مقبولة أو مغفورة ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾(**الكهف**: ٥٤).

وهذه الطبائع جميعًا مزالق لمن يسترسل معها، وقد نبه القرآن الكريم إلى أمراض شتى تعتري النفس، فالإنسان قد يبطر مع الغنى، ويطغى مع السلطة، ويقنط مع الفشل، وقد يستحلي من شهوات النساء، والرياء، والاستعلاء

ما يحيله إلى عبد لنفسه وهواه، ولكن الفكاك من هذه الآثام كلها ميسور، فإن القرآن الكريم لما خوف عواقب هذه الانحرافات الإنسانية ذكر أسباب النجاة منها، ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ (**العصر**: ١، ٢، ٣)، وما أجملته سورة العصر من وصف للداء والدواء، فصلته سور أخرى، نختار منها سورة المعارج التي أسندت للإنسان هذه الخلال ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾(**المعارج**: ١٩، ٢٠، ٢١)، لكن الإنسان يبرأ من هذه العلل إذا قام بجملة العبادات المفروضة.

ونتساءل: هل هذه العبادات «مصل» واق، أم شفاء من أمراض توجد وتتجدد؟ قد يكون هذا أو ذاك! ولنتدبر أولًا الاستثناء الذي تضمنته السورة الكريمة ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (**المعارج: من ٢٢ إلى ٣٥**).

لا شك أن هذه العبادات مجتمعة تنشئ إنسانًا كاملا، شريطة أن تؤدى أداء حقيقيا لا أداء تمثيليا! وأحب أن أقف عند واحدة من هذه العبادات لأتأملها وأتعرف على آثارها النفسية، وهي قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم

بِشَهَٰدَتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾. إن الإنسان المسلم يجب أن يكون مستعدا دائمًا لأداء الشهادة على وجهها، ليحق الحق، ويبطل الباطل، ويدعم العدالة. والقيام بالشهادة يتطلب صراحة لا تخاف في الله لومة لائم، ذلك أن الحق يختنق في هذه الدنيا وسط دخان الشهوات المتصاعد من هنا ومن هناك. والمرء ينكل عن الإدلاء بالرأي الصحيح والقول الصحيح، لأنه يخشى على مستقبله مثلا، أو يريد محاباة قريب، أو يطمع في مال، أو يتطلع إلى منصب، إنه لا يستبين وجه الله من غلظ الحجب على بصيرته! والمجتمع الإسلامي يسقط مع اختفاء الذين هم بشهاداتهم قائمون. وكم رأينا من أناس قدموا وحقهم التأخير، أو أخروا وحقهم التقديم، لأن المؤمنين ليسوا بشهاداتهم قائمين، ربما سكتوا أو قالوا فلم يعدلوا!

ولقد عرفت لماذا سبقت بعض المجتمعات سبقا بعيدًا، عندما قرأت أن زوج الملكة في هولندا عزل وجرد من أوسمته، لما كشفت صلته بقضية رشوة، وأن رئيس وزراء اليابان عزل ورمي به في السجن للتهمة نفسها!

إن القيام بالشهادة يعني ألا نترك صاحب حق مستوحشا في هذه الدنيا لا صديق له ولا ظهير، والشهادة بداهة ليست ما يقال أمام المحاكم فقط، بل ما يقال في كل خلاف أو مشورة أو اختيار أو انتخاب أو أي شأن ذي بال. والقائم بالشهادة رجل أسلم لله وجهه وقرر أن يحيا للحق وحده! وقد تتشابك في نفس الإنسان عدة طباع مثل تشهي الحياة، وتعجل النتائج، وغلبة الأثرة، فيصدر أحكاما خاطئة على ما يصيبه من خير أو شر، وتستبد به المبالغة فتجمح به مشاعره نحو نفسه ونحو الناس، وفي هذا يقول جل شأنه ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ ﴾(هود: ٩، ١٠، ١١)، في هذه الآيات صورة الإنسان الذي

تستبد به الساعة الحاضرة وحدها، فهو عند فقد ما يسر منهزم كسير من شدة القنوط، وعند وجدانه ينتشى ويغتر من شدة الفرح، وكان يجب أن يتمالك نفسه في الحالتين وينظر إلى أصابع القدر وراء ما يمسه فيستكين لله ويؤدي ما عليه بتعقل.. ثم ينضم إلى هذا الإحساس المعتدل شعور آخر أساسه أن ما يناله من خير ليس تمتيعا له وحده، فإن للمحرومين سهمًا فيما جاءه، وقد يكون سهما كبيرا ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ١٥-٢٠)، وأن الفقر ابتلاء، ومن الخطأ تصور الإغناء تكريما والإفقار إهانة.. العبرة بالنتائج، فإن الذي يستعف في فقره أسبق عند الله وأرجح في الميزان من الذي يطغى بغناه.

والذي يمنح الثراء فيفتح أبوابه لليتيم والمسكين ويسارع بالبذل في مواطن النفقة هو الإنسان الناجح في الامتحان، السابق في الميدان.. لكن البشر- للأسف- يحسبون العطاء تدليلًا لأشخاصهم، والحرمان إهانة وإذلالا.. وذلك خطأ بالغ في فهم الدين والدنيا.. وعندما خال الناس أن الغنى تكريم ذاتي لبعض الأفراد والأسر، وأن الفقر هوان ذاتي قصده الله لبعض الأفراد والأسر، عندما شاع ذلك انفجرت براكين الأحقاد ضد أصحاب الثروات، وانفجرت معها عواصف الإلحاد والكفر، وتعرض مستقبل الإنسانية كلها للبوار، وهل انتشرت الشيوعية إلا في هذا الجو؟

إن العبادة هي السلم الفذ الذي تصعد فيه النفس الإنسانية إلى الكمال المنشود. يجب على الإنسان أن يعرف ربه، وأن يقف في ساحته عبدا نقيا من الآفات والعاهات، إن آدم لما نسي وضعف، أضحى دون مستوى الجنة فأخرج منها. ولن يعود أبناؤه إلى الجنة وهم يحملون أوزار النسيان والضعف،

لا بد من إيمان واضح، وعمل صالح وفي طول القرآن وعرضه توكيد لهذه الحقيقة التي حاول كثيرون الزوغان منها..

ونعود إلى الخاصة الأولى في تكوين آدم وبنيه، خاصة العقل العالم بالأشياء الخبير بالحقائق والأسماء، إن الإنسان المكلف بعبادة الله لا يعبده بشبحه المحدود، وجسمه المادي القاصر! إنما يعبده بتطويع طاقاته كلها لله. إنه يضع بصماته المؤمنة على الأرض حتى إذا سجد، سجد معه زرعها وضرعها وحديدها وذهبها وكل ما ملك وارتفق!

وأرى أن ذا القرنين عندما ساوى بين الصدفين، وذوب الحديد والنحاس داخل سلسلة من القلاع التي تحمي الضعاف وتذود الطغاة- أرى أنه أحق الحق، وأبطل الباطل، لا بالكلام وحده، ولكن بجعل الأرض ومعالمها ومعادنها تؤدي وظيفته، وتحمل طابعه، وكأنها امتداد لنبض قلبه وبطش يده، وهل ملك الله الأرض للإنسان إلا لهذا؟

عندما تعطي خادمك أسباب الزينة والوجاهة، فيجيئك أشعث أغبر، فأنت تضيق به، والعباد الجهلة بالحياة، الغرباء في الكون، سوأة زرية، وجهل أو تمرد على الخلافة الإنسانية في العالم، ونحن المسلمين سنحاسب حسابًا عسيرًا على تخلفنا الفاضح في العلوم الطبيعية، ربما احتاج الإنسان كي يصلي إلى مساحة من الأرض لا تعدو ذراعًا في ذراع، ولكنه كي يدفع العدوان عن هذا المسجد الضئيل، يحتاج إلى معرفة تمتد من الأرض إلى المريخ، بل إلى الشمس، معرفة في هذا العصر تهيمن على ما في الأرض وما فوق الثرى، وتخترق طباق الجو متحسسة آفاقًا بعد آفاق من أغوار الكون البعيد.

كتب الدكتور فاروق الباز الخبير في غزو الفضاء عن حاجة العرب إلى «متنقل فضائي» يستعينون به على اكتشاف أرضهم، وما أودع فيها من خيرات، وأهاب بالحكومات العربية أن تمول هذا المشروع، قال: «ليس من المستبعد في نظري أن تخطو دولة عربية هذه الخطوة فتحقق ما فيه الخير

للعالم العربي كله، نحن نعلم أن الصحراء تكون ٩٦٪ من جملة الأراضي العربية ولا بد من الانتفاع بجزء كبير من هذه الصحراء، إلى جانب دراستها دراسة علمية صحيحة، فنحن لا نعلم عن الصحراء إلا قليلًا، وربما كان سبب هذا أن علماء الغرب لم يهتموا لقلة الصحاري في بلادهم، ولصعوبة التنقل في صحرائنا الشاسعة!

ويلزم العلماء العرب أن يدرسوا الصحراء وتضاريسها وتراكيبها، دراسة تفصيلية لأن البادية منبع كل ما هو عربي.. والصحراء تحيط بالعرب من كل ناحية، يتضح هذا لرواد الفضاء في المدار الأرضي وضوحًا تاما حتى إن رواد القمر كانوا يتعجبون لظهور الصحراء العربية في صورهم الملتقطة كتلة واحدة على بعد أربعة ملايين كيلومتر».

قال: «وتعتبر الصحراء خزانا عظيم الشأن للنفط وللمياه الجوفية، ويصلح بعض أجزائها للزراعة المثمرة، وأهم من ذلك كله أن الصحراء خزان عظيم لطاقة لا نهاية لها هي الطاقة الشمسية، ولذلك يجب أن تشمل دراسة الصحراء العربية تحديد أصلح الأماكن لأبحاث الطاقة الشمسية، وطرق الإفادة منها ومن الناحية الاجتماعية يجب أن تشمل الدراسة التعرف على الأماكن المختارة لمعيشة الإنسان، وإنشاء المدن الكبيرة والصغيرة وطرق المواصلات ومنتجعات السياحة والترفيه، وتحديد بنية الخضرة في الصحراء لاستغلالها، ومعرفة المؤثرات المختلفة على حياة البدو، إلى غير ذلك مما يجعل الصحراء بقاعًا لائقة للعيش الكريم».

قال: «وينجح هذا العمل إذا تم على مستوى عربي جماعي! فالصحراء العربية برغم ترامي أطرافها، إقليم واحد، له ميزات ومعالم جغرافية واحدة، ولا صلة لهذه الوحدة بالحدود السياسية الوهمية بين الدولة وخطوط الشتات التي مزقت الكيان الواحد».

قال: «وأما المطلوب لدراسة الصحراء على المدار الأرضي، فهو في اعتقادي قمر صناعي يرحل إلى الفضاء (المتنقل الفضائي) الذي سبق

للدكتور الباز اقتراحه- ويرجع صوره الملتقطة إلى الأرض رواد الفضاء المختارون، وذلك بين آونة وأخرى! ويكون هذا القمر عربيا في أغلب نواحيه، يختار مكوناته علماء يقومون بتشغيله، وتدرس المعلومات المرسلة في عدة معاهد عربية أو في مركز عربي موحد تشترك فيه الدول العربية كلها».

قال: وكنموذج للمكونات التي يجب أن يشتمل عليها القمر الصناعي العربي ينبغي وجود عدة كاميرات أهمها كاميرا للتصوير الطبوغرافي، وكاميرا للتصوير الدقيق أي بانورامية وكاميرا لأخذ الصور المتعددة الأطياف، على نمط أجهزة لاندسات، بل أكثر دقة وأقل تعقيدًا. الكاميرات الطبوغرافية تلزم لأخذ الصور المطلوبة لخرائط على مقياس ١:١٥٠٠٠٠ من ارتفاع ١٨٠ كيلومتر وطول عدسة هذه الكاميرا هو ٣٠٥ ملليمترات ومساحة الصورة الواحدة ٢٣×٤٦ سنتيمترا... الخ. إنني تعمدت هذا النقل ليعلم من يجهل أن دراسة الكون شيء مثير وخطير، ولا بد منه لدنيانا ودیننا معًا، وأن هذه الدراسة برع فيها غيرنا ونبت لديه جيل من الرواد والباحثين العباقرة على حين تراجعنا نحن وراء وراء.

إن هذا التخلف إذا بقي فسوف تتلاشى عقائد الإيمان بالله واليوم الآخر، وينهزم التوحيد هزيمة نكراء.. وإنني لأصيح دون مواربة بأن هذا التخلف جريمة دينية لا تقل نكرا عن جرائم الربا والزنا والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وغير ذلك من الكبائر التي ألفنا الترهيب منها. بل لعلها أشنع وأوخم عقبى.

إن الجو الذي يحيا فيه قارئ القرآن يسع البر والبحر، والسماء والأرض، ويطلق الفكر سابحًا في ملكوت لا نهاية له. ويؤكد للإنسان أنه ملك يخدمه كل شيء فما الذي جعل الفكر الديني يعيش في قوقعة؟ إنني أحس فزعًا كبيرًا عندما أرى بعض المتصدرين في العلوم الدينية- هكذا يوصفون- يماري في دوران الأرض، أو ينكر وصول الإنسان إلى القمر! لماذا؟ لأنه يعيش في مغارة سحيقة، صنعها أشخاص قاصرون، لا يتصلون بحقيقة القرآن إلا كما يتصل القروي بعلوم الذرة.